لبنان

الشعر .. والحضارة العربية !

*

تثير في هذه الاونة بعض الحلقات الادبية في بيروت قضية الجذور الحضارية والاطار الحضاري للادب العربي الحديث . وترى النخبة المخلصة من الادباء انها تعترف بواقع قائم وتؤكد مايجب ان يكون حين تقرر ان الادب العربي الحديث يصدر من محاولة جريئة واعية في تطوير العناصر الحية من تراثنا القديم وتمثل الادب العربي في تراثه المتكامل ثم والافادة من مذاهبه وفنونه افادة لاتؤذي اصالة ادبنا وتفرده، بل تغنيه وتسعفه في استكمال ادوات التعبير من تجربة الانسان المعقدة في هذا العصر ، وهي لذلك لا تغفل عن الفارق الحضاري بين المجتمع الاوروبي الذي استقرت فيه الحياة والمجتمع العربي الذي مابرح في ثورة لم تحقق بعد جميع اهدافها ، ومن البديهي ان يختلف ادب الاستقرار جوهرا عن ادب الثورة في الشكل والمضمون ، ومن ثم كانت اصالة الادب العربي ناشئة عن انغماسه ومعاناته لواقع الحياة العربية الحاضرة ونفاذه عبرها ، في محاولاته الناجحة الى القضايا الانسانية العامة الدائمة وليست المذاهب الادبية ، في رأي هذه الفئة ، نظريات مجردة مطلقة ، بل هي حلول عملية ايجابية لما يعيق تطور الحياة والفن في عصر ما من العصور . وانها لتستهدي بهذا المبدأ ، حين تعرض لبحث طبيعة الاسلوب والمضمون والشكل والصلة الحتمية التي يجب ان تقوم بينها .

غير ان في لبنان فئة اخرى تدور في حلقة من الانزعاج والاضطراب حين تعرض الجذور الحضارية والاطار الحضاري . والسبب هو افتقار موقفها الحضاري الى مستند من واقع التاريخ والادب . ويعود هذا الموقف الى دعوة هجينة ثارت حينا في ظل الانتداب ثم خمدت سراعا ، ومؤداها ان لبنان من امم البحر المتوسط وان حضارته جزء من حضارتها، اما الحضارة العربية فتقع خارج هذا الاطار ، وربما لم يعترف اصحاب هذه الدعوة بوجود حضارة عربية ، وعدوا العروبة مرادفة للجهل وللصحراء والبداوة . ولاغراض لايمكن ان تكون خالصة لوجه الادب تبعث هذه الدعوة من جديد ويقوم على نشرها فئة تحاول ان تدعي انها وحدها تمثل « الشعر الحديث » وما ذلك الا لانها تتنكر للتراث العربي وللحياة العربية الحاضرة ، وهذا وحده ، في رأيها ، يضعها في مجرى الحضارة الغربية . وترى في شعر هذه الفئة شتما صفيقا للحضارة العربية وتحسرا على اندثار ماقام قبلها في الشرق العربي من حضارات. وقد بلغت الصفاقة والرعونة باحد افرادها ان قال « اني ابول على هذه الحضارة ـ الحضارة العربية » . ومن الغريب انه ليس بين افراد هذه الفئة من عرف اوروبا معرفة صميمة ، معرفة من عاش في جامعاتها وارتاد مسارحها ومتاحفها وعانى حياتها في مستوياتها المختلفة .

وعندما يمتعض بعض الشعراء القوميين العرب الذين يسهمون في مجلة هذه الفئة ، يكون جوابها اننا عملا بحريه الفكر ننشر ماهو ضد العروبة كما ننشر ماهو معها ، وهنا تتفاوت النسبة ويغدو القليل من الشعر العروبي الذي يسمح به في المجلة قناعا يستر دعوتهم المغرضة والجانية على القضية العربية . ولكن هذه الخدعة مابرحت ان انكشفت لاغلب الشعراء العروبيين فانقطعوا عن المجلة .

ويقوم حول هذه الفئة في لبنان حصار من المقاومة والاستخفاف والتهكم يضيق عليها يوما بعد يوم ، بالرغم مما تبذله من خدمات مجانية للسيطرة على الصفحات الادبية في الصحف .

ولو كان غرض هذه الفئة الاخلاص في البحث لادركت ان العرب قد حملوا الحضارة المتوسطية قرونا طوالا فتمثلوها وكيفوا اسسها ثم انطلقوا منها الى الابداع الذاتي الاصيل ، وان الغرب تسلم هذه الحضارة من العرب في اواخر القرون الوسطى واوائل النهضة الحديثة . ان المغرضين وحدهم ينكرون ما للعلم الحديث والفلسفة الحديثة والادب الحديث من جذور في الحضارة العربية القديمة . ففي هذا الموضوع ركام من المؤلفات مبذولة لمن يريد ان يطلع ويفهم .

ومن اسباب اضطراب هذه الفئة وانزعاجها في تحديد موقفها الحضاري انه ليس للبنان حضارة خاصة وليس للبنان ادب خاص سوى مآثر اللبنانيين الذين وقفوا جهودهم على بعث التراث العربي وتطويره والاضافة اليه بما ينسجم مع عبقرية شعبه .

ان « الاداب » تكتفي الان بعرض هذه القضية دون ذكر اسماء ، او تحديد جهات ، وهي تورد هنا ما ادلى به الدكتور خليل حاوي الى جريدة « لسان الحال » البيروتية حين طرحت عليه بعض الاسئلة المتعلقة بهذا الموضوع :

س ـ يعتقد البعض ان الشعر في لبنان وفي حقبة مابين الحربين قد شق افاقا جديدة ، فما رأيك في ذلك ؟

ج ـ ارى ان الشعر في لبنان ، وفي هذه الحقبة بالذات ، لم يكتشف جديدا ولم يأت بخلق أصيل ، بل كان هائما ضائعا يتوكأ حينا على القديم الجامد وحينا على الغريب المجلوب . فانك تلمح وراء كل قصيدة شبح شاعر غربي حديث او عربي قديم . والشاعر الاصيل يضرب جذورا عميقة في حضارته وفي الحضارة العالمية ، يمتص الغذاء الصالح فيحيله الى مادة ذاتية . والافة الكبرى التي ضربت شعراء تلك الحقبة تعود الى اخذهم باللغة العربية اداة مجردة للتعبير ، وتنكرهم لها من حيث هي لغة تحمل حضارة خاصة . ومن ثم كان ان جرفتهم الحضارة الغربية وامتصهم الادب الغربي ومسح معالم شخصيتهم . ومع ذلك فان افتتانهم بالادب الغربي لم يدفعهم الى التعمق في خصائصه الجوهرية واستيعاب تراثه المتكامل العريق ، وانما وقفوا منه عند طوره الاخير وظواهره العرضية . فانت تسمع اصداء غامضة وترى صورا مشوهة للمذاهب الغربية في شعرهم . كذلك كان شأنهم حيال الشعر العربي الذي لم يتعمقوه ، فوقعوا ضحية لما فيه من تقاليد ليست من صميم الفن الاصيل . وقد وقفوا في اللغة عند العصر العباسي فكان الطلاق بين الاسلوب والمضمون في شعرهم . تعبير مغرق في البعد عن لغة الحياة في هذا العصر ، ومضمون مستحدث استلموه جاهزا من مصادر اجنبية. لهذا كله جاء شعرهم غريبا عن واقعنا ، وكان في الوقت نفسه تنوعا بسيطا في سياق الشعر العربي . فشعر سعيد عقل ـ مثلا ـ لا يعدو الاسلوب التقليدي الذي يستهدف صياغة المعاني الذهنية والفكر المجردة صياغة زخرف وتجميل . اما البيت عنده فما يزال وحدة الشعر ، والبناء في القصيدة مايزال هندسية لفظية ، وقوالب براقة جامدة نفتقد فيها نشاط الحيوية المتوهجة ، ونفتقد من تجارب الانسان كل ما لا يحشر في قوالب الهندسة . فكان ان ظلت مسالة التجديد ، بعد الحرب الثانية ، كما كانت من قبل ، محاولة يجب ان تستهدف تحطيم البناء القديم . وكسر العبارة التقليدية وردها الى الواقع ، وهدم السور القائم بين الشعر والحياة ، والتعبير عن تجربة الانسان في واقع بلادنا وعصرنا ، ثم النفاذ عبر ذلك الى تجربة الانسان في كل عصر .

س ـ والشعر في لبنان بعد الحرب العالمية الثانية ، وهذه الضجة حول القصيدة المنثورة ؟

ج ـ اود ان اتحدث اولا عن ثقافة الشعراء ثم اردف الكلام على نتاجهم الشعري . وابرز مايلفت النظر في ثقافة الشعراء الجدد ، او الذين حاولوا ان يتجددوا ، ان تلك الآفات التي ضربت ثقافة سابقيهم قد امتدت

الى ثقافتهم وشاعت فيها على مجال اوسع وارهب . فانهم ـ باستثناء القلة منهم ـ يكتبون بلغة لايحفلون بها ، ولشعب انفصلوا بهمومهم عن همومه ، ويلتصقون من الخارج بحضارته التي يجهلونها . وهم في الوقت نفسه يذوبون صبوة الى الحضارة الغربية التي يزيد جهلهم بها عن جهلهم بالحضارة العربية . انها صبوة البسيط الساذج لكل مبهم معقد بعيد . ولا عجب ان يلتقطوا الثقافة من مجلات الادب الغربي ، ويأخذوا باحدث زي يظهر فيها ظنا منهم ان في ذلك غاية السبق والتجديد . وفاتهم ان التجديد بدون اصالة ذاتية تقليد اعمى . ولا اقسو اذا قلت انهم فريسة لامية في الفكر والفن وليتم حضاري جعلهم عرضة للانطباع بكل وافد غريب . فتراهم لايخرجون من رحم شاعر اوروبي الا ليدخلوا في رحم شاعر اوروبي . ومن ثم كان نتاجهم معرضا للانفعالات المتلاحقة بالاخرين .فاذا انت تفحصته بدا لك طبقات ملونة ، كل طبقة بلون ، وبدت لك شخصياتهم كانها « ملفوف » متعدد الالوان . فليس في تطورهم دفع من الداخل وليس فيه نماء طبيعي حتمي . ان نتاجهم لدليل محزن على ان الشعر في لبنان ما يزال منفعلا متسكعا وراء الشعر الغربي . وما دام النتاج في غالبيته على هذا الهزال فقد انتفى معنى الفارق في الشكل ، سواء أكان الشكل قصيدة منثورة ام شعرا مقفى موزونا .

★

التشريع اللبناني يعرقل الانتاج الادبي

★

كان قد صدر بتاريخ ٧ كانون الثاني سنة ١٩٥٥ مرسوم اشتراعي عن الحكلموة اللبنانية ، يحدد نظام الموظفين ، ويحمل الرقم ١٤ .

وكانت المادة ٢١ من هذا المرسوم تنص في فقرتها الخامسة ، انه « يحظر على الموظف ان يمارس مهنة حرة فيما خلا الاحوال المنصوص عليها في القوانين والانظمة الخاصة ، باستثناء التاليف الادبي والفني، والقاء الدروس في معاهد التعليم العالي ، والمدارس المهنية ، خارج اوقات الدوام الرسمي . »

هذا هو قانون ١٩٥٥ ، وبعد اربع سنوات ونصف صدر بتاريخ ١٢ حزيران ١٩٥٩ مرسوم اشتراعي اخر ، يحمل الرقم ١١٢ ، تنص الفقرة الاولى من المادة ١٥ فيه ، على مايلي : « يحظر على الموظف ان يقوم بأي عمل تمنعه القوانين والانظمة النافذة ولا سيما : ١ ـ ان يشتغل بالامور السياسية ، او ينضم الى الاحزاب السياسية ، او يحمل اشارة حزب ما، او يلقي او ينشر بدون اذن كتابي من الرئيس المختص في وزارته، خطبا او مقالات او تصريحات او مؤلفات في جميع الشؤون » .

وتقضي المادة ٧٣ من المرسوم نفسه في فقرتها الاولى بان « يعزل الموظف بقرار من مجلس التاديب اذا اخل اخلالا فادحا باحدى واجباته المسلكية المحددة في القوانين والانظمة النافذة ، ولا سيما في المادتين ١٤ و ١٥ من هذا المرسوم الاشتراعي » .

وهذا معناه ان الموظف الاديب ، او الاديب الموظف لايستطيع ان يمارس موهبته الادبية الا باذن كتابي من رئيسه المختص ، فاذا لم يرض رئيسه ان يكون « أديبا » ، وان يسجل على نفسه رضاه هذا كتابيا ، كان من واجب الموظف الاديب ، ان يذعن لذوق رئيسه ، وتقديره ، وفهمه الخاص للحياة والمجتمع والكون والطبيعة والناس ، والا تعرض قانونيا لمجلس التاديب ، ومنه للعزل ، ويفقد « حقه في التعويض والصرف والتقاعد » عند عزله على هذا النحو ، كما تنص الفقرة الثانية من المادة ٧٣ من هذا المرسوم .

ثم يعني من جهة ثانية ان قضية الحرية الثقافية قد تاخرت في لبنان قرابة خمس سنوات بين ١٩٥٥ و ١٩٥٩ .

ثم يعني اخيرا ان الوظائف العامة في لبنان تسير في هذا الخط ، وهو ان تكون بين ايدي أشخاص لايخطبون ولا يؤلفون ولا ينشرون « في جميع الشؤون » مع انها ينبغي ان تكون في أيدي نخبة المواطنين . وربما كان للمشترع اللبناني بعض الحق في الحظر على الموظفين الاشتغال بالشؤون السياسية والحزبية ، فهذه من عادتها ان تسيء حتى للاديب نفسه ، ولكن أي حق يدافع عنه هذا القانون ، حين يشمل الحظر الشؤون الادبية والثقافية ، ويضع في طريق البحث فيها من قبل الموظفين عقبة « الاذن الكتابي » ، وما تجره وراءها من عرقلات للانتاج الادبي يصعب حصرها .

هذه الاعتبارات حدت بجمعية أصدقاء الكتاب ، ونفر من اهل الفكر، ورجال الثقافة في لبنان ، على اعادة النظر في هذا التشريع الذي يسيء للبنان بوصفه منبر الحرية في الشرق ، ومنار الثقافة ، وتفسيره او تعديله بما هو اقرب الى روح العدالة ، وأرسخ قدما في سبيل الديمقراطية الصحيحة .

وانا لنأمل ان يلاقي اصدقاء الكتاب واهل الفكر ورجال الثقافة ، أذنا صاغية لدى المسؤولين اللبنانيين ، والمشترعين ، في وقت قريب .

الجمهورية العربية المتحدة

الاقليم الجنوبي

مدرستان نقديتان

لمراسل الاداب محيي الدين محمد

★

تاريخنا النقدي القديم زاخر بالمجهودات الفكرية الذاتية والمستمدةمن اليونان ، وزاخر بالمؤلفات المتعددة عن النظريات الشعرية ، وزاخر بالاسماء الكبيرة التي أرست قواعد القوالب الفنية للقصيدة ، من مثل ابي تمام وابن المعتز وقدامة وابن قتيبة والامدي وابي هلال العسكري والجرجاني وغيرهم . انه تاريخ ضخم وغني وزاخر ، ولكنه ناقص ايضا بقدر ماهو كذلك ، فالواضح ان التاريخ العربي القديم لم يعرف من الفنون الادبية سوى الشعر ، مما دعا الى ان يلتزم النقد ايضا هذا المسار ـ والنقد القديم كان تسلقيا ، بمعنى انه يعتمد اعتمادا كليا على الابداع ـ فعورضت النظريات الشعرية بالنظريات ، وقارعت الحجة اختها ، وناقش النقاد بعضهم على اساس من التاثرية احيانا ، وعلى اساس من المنطق والعقل والعلم احيانا اخرى ، ولكن كل هذه المؤلفات ، وكل المناقشات ، وكل النظريات كانت خاصة بالشعر العربي وحسب ، وامتلاالتاريخ العربي بهذه الابحاث الى درجة ان الناقد الحديث ، يتجه تلقائيا الى رصد دواوين الشعر ، والكتابة عن الشعراء والقصائد الجديدة ، لانه مخدوم بخلفية نقدية هائلة ، وهو لايحتاج الى استعارة التاريخ الثقافي من الغرب ، لان تاريخه زخم ومليء، اما حينيتجه الناقد الحديثـوهو يتجه احيانا ـ الى رواية عربية حديثة ، فهناك البلبلة ، والتاثرية ، والميول، والاهواء ، واستعارة النظريات الغربية بكاملها لتطبيقها على العمل الادبي مما يعطي لاحكامه صفة الغرابة احيانا ، والارهابية احيانا اخرى . ونادرا ماينجح ناقد القصة او الرواية في رصد العمل بالدقة التي يباشر بهـا ناقد الشعر اعباءه ..

النشاط الثقافي في الوطن العربي

اعمالنا الفنية الاخرى كالقصة والرواية والمسرحية ، اشكال تعبيرية جديدة في واقعنا ، لم تأخذ بعد ، الشكل القوي المؤثر الموجودة بـــه في الغرب ، وهي لابد بالغة هذا التأثير بكثير من الدراسة والادراك . هذه الاعمال مازالت تعاني من القصور ومن الضعف ، ومن فقدان الاتجاه وفقدان الفنية ، وافتقار المعرفة الاساسية كدراسة الافكار ، والتيارات الفلسفية والدينية والاخلاقية ، وكل ما يسهم بتأمين الذخيرة الانسانية والارضية ــ لا الفنية ــ بالنسبة للمبدع ، ولم يوجد في الغرب ــ حتى الان ــ ذلك الفنان، روائيا كان او مسرحيا ، او رساما ، والذي يتجاهل ثقافة امته ، وثقافة اوروبا بأكملها ، ويعتمد كل الاعتماد على موهبة مصقولة او غير مصقولة . لم يوجد هذا الفنان ، وأحسبه لن يوجد ، فالفنان الابداعي مزيج من الالهام المتصوف المعاني ، ومن الاحمال الثقافية التي يحياها ، تاريخيا وفنيا عن طريق قراءاته ، وحضاريا بطريق هذا الوعي الجسدي والعصبي بالاخرين وبوطنه وعالمه ..

وليس غريبا بعد ذلك ان يكون كل فنان غربي ، قائدا كبيرا من قـادة الفكر ايضا . فتاريخ الفكر الاوروبي ، هو تاريخ تنحية عزلة المفكر رويدا رويدا ، عزلته السياسية والاقتصادية ، والعلمية ، والاخلاقية ، اذ كـان يكفي الفنان في القديم ، ان يقدم عملا ابداعيا موحيا ، اما في العصـور الراهنة ، فالفنان شحنة اعصاب وافكار ، وأحاسيس ، نفرض فيه ان يكون اكثر وعيا من قرائه ، واشد خبرات ، ومعرفة .

من اجل ذلك .. من اجل هذا الحضور المستمر ، تشهد هذا الامتزاج الفني في الرواية الحديثة ، وفي المسرحية ، بالافكار الفلسفية التـي كانت قاصرة على الفلاسفة وحدهم ، بل ان الشعر نفسه يفتني بهـذه الافكار ، ويجوب افاقا لم يكن يعد بها فيما مضى ..

ولم تكن الفلسفة الوجودية وحدها ، التي نبهت الى الاهتمام بالمصير الانساني ، فقد كان الموقف نفسه في اوروبا يحتم على الفنان ان ينقذ الانسان ، وجاءت الفلسفة الوجودية لتعلن عن هذا الموقف ، وتكشفه .. فقد كان الاهتمام بالنسبة للحضارة الاوروبية ، موجها الى كيفية الاستفادة من الانسان ، والى خير الطرق لامتصاص حيويته ، وعزله عن حريته وتمرداته ، وكان العصر الصناعي يسهم من جهة اخرى بتشييت الانسـان وتجميده في مطالبه وسعاداته الخصوصية ، وكان ذلك يعني ان البشر يتحولون من مشاريع الهة شديدة الصلابة ، الى فعلية حيوانات شديـدة التفسخ .. وكان الانسان راضيا ، لانه لم يعد يثق بأي شيء ، ولم تعد لشيء ما ،قيمة بعد .. وفي هذه الظروف ، قدمت لاوروبا اعمال فنية من طراز الغريب لالبير كامو، والغثيان، ودروب الحرية لجانبول سارتر، لتسجل هذه المرحلة من تاريخ البطل الاوروبي ، الفاقد همته . ومنـذ هذه اللحظة المتمردة ، حتى الان ، امكن للانسان الاوروبي ان يلاحظ يمكن الاستناد اليها في اقامة نقد حديث ، يستوي في ذلك مؤلفـات لانه لم يعد يقول : هذا موقف اخلاقي ، وانا لاابالي بالفلسفة ، او هـذا موقف سياسي ولست سياسيا .. انه لم يعد يقول ذلك ، لانه تعلم ان الكون هو ملكه ، طالما هو يعيه .. ان نقطة الانطلاق الفكرية القديمة منذ المسيحية الاولى حتى باسكال وكيركيجورد ، هي هي ، نقطة الانطـلاق الحديثة في اوروبا : ان الانسان يموت !!. ولكن هذه الفلسفة ، مرتبطة مع الموقف الشامل في اوروبا ، تعطي جوابا مبشرا : .. وعلي أذن، عبء ان احيـا مـن جديد ..

اعمالنا الفنية في الشرق العربي لم تبلغ هذه الاعماق ، لان الفنان هنا منفصل عن التاريخ وعن الانسان ، وكل اهتمامه موجه الى الفنية ،بل ان كثيرا من الروائيين وكتاب القصة ، يتجاوزون حتى عن هذه المسلمة الاساسية ، ويعتمدون على جهل القارىء ، والمصادفة . والنقاد الكبار الذين يعيشون هذه الفترة العصيبة ، قد تربوا تربية فكرية في اوروبا، في جامعات فرنسا وامريكا وانكلترا ، وعادوا من هناك يحملون افكارا متقدمة للغاية ، ونظريات نقدية عالية المستوى ، بل وغريبة للغاية ،وكانوا يحسبون ان الناقد يمكنه ان يصبح موجها وحسب ، يستطيع بكلمتـين ان ينقذ الابداع والمبدعين ، وان يجعلهم ينتجون ادبا في مصاف الادب الاوروبي واكمل . ونسي هؤلاء ان النقد العربي ليس تعاليم كنصوص التوارة والانجيل ، يمكن استخدامها في الارجنتين ، كما تصلح لكوريا، ونسوا ايضا ان النقد الاوروبي تعبير حضاري عن الروح الاوروبية ، بكل مافيها من قيم واخلاق ومفهومات ودين وسياسة ورموز وتجارب ... نسوا ان استعارة النقد يمكن ان تحدث البلبلة التي احدثتها تحويلاتهم غيـر المنظمـة ..

صحيح .. لو امكن للجنة كبرى ان تقوم بهذه العملية ، اي ترجمة الاعمال النقدية الرئيسية في الغرب ، بتاريخ صدورها ، مع ترجمة النقاد بأكملهم ، وليس مؤلفا من هنا واخر من هناك ، لو امكن لمثل هذه اللجنة ان تقوم ، لادت دورا ممتازا في توعية المثقفين ، نقادا ومبدعين ، وذلـك لان ترجمة التراث النقدي في اكثره ، سوف تخلق جوا مشبعا بالفهـم والادراك ، وسوف تصبح المناقشات على مستوى الواضح والمعروف والمفهوم ، وعلى ذلك يصبح اختيار هذا المذهب ، او غيره ، مبنيا علـى فحص ومعرفة لمعظم المذاهب التي قدمتها اللجنة ، وترجمت اعمال مفكريها وفلاسفتها .

اما الان ، فان البعض عندما ينادي بالنقد الواقعي الاشتراكي مثلا ، لا يضع في اعتباره عري الارض النقدية عندنا عن جذور هذا المذهب وخطوطه ، وهو ــ في ندائه ــ لايلقى اذنا تسمع ، فما هو النقد الواقعي الاشتراكي ، وهل يصلح ايضا ان ننادي ــ على هذا الاساس ــ بنقـد رأسمالي موجه .. او بنقد كيفما كان اسمه ؟!..

كان النقاد يعودون من اوروبا ، وقد قرأوا اشياء لم يقرأها الاخرون، ولم يحاولوا حتى ان يستخلصوا الافكار الرئيسية التي اعتنقوها ، لتصبح امكانية الاقناع موجودة ..

وكان هناك تيار اخر ، غير تيار القادمين من اوروبا ، وهو تيار اصيل نوعا ، يستند الى كل ماهو ذاتي في النقد ، ولا يضع اعتبارا لقاعدة او فلسفة ، عملا بالنص : كل نقد انما يخفي ذاتية مستورة ..

ولم يقدم هذا التيار اشياء جديرة بالتنويه او الدراسة ..

وهكذا حدث انفصام بين النقد العربي القديم ، وبين هذه الاخلاط الشائهة الحديثة ، بل وحدث تناقض ايضا ، عندما تعارضت النظرية العربيةالقديمة للشعر ، مع المفهوم الحديث للشعر الاوروبي (١) ، فتخلى الشعراء عن الشكل القديم للقصيدة ..

ولم يتمكن الذين كتبوا تاريخ النقد العربي ان يوجدوا اصولا مشتركة يمكن الاستناد اليها في اقامة نقد حديث ، يستوى في ذلك مؤلفـات الدكتور محمد مندور ، مثل « النقد المنهجي عند العرب » ، ومؤلفات

---

(١) مخطيء من يظن ان حاجة الشاعر العربي فقط الى التعبيـر عن اشياء يضيق بها عمود الشعر القديم ، هي التـي جعلتـه يطرح النظرية العربية القديمة في الشعر و (يكتشف) الشكـل الجديـد للقصيدة ، اذ ان النقد المرتبط بأوروبا ، والثقافة المرتبطة بأوروبا هي التي عجلت بهذا التطور ، ولا يجب ان ننسى ان الذين طوروا الشعر العربي حقيقة كنازك والسياب والبياتي ، قراء ممتازون للشعر الانكليزي الحديث ...

الدكتور محمد غنيمي هلال ، مثل « المدخل الى النقد الادبي الحديث » فقد كانت كلها مؤلفات لتعريف النقد العربي ، أو لتحقيق بعض النصوص الهامة التي قيلت هنا او هناك .

استحالة وصل النقد العربي الحديث بالقديم ، استحالة عجز ،وليست استحالة رفض ، فالمعروف ان مؤرخي النقد في انكلترا او امريكا او فرنسا ، كانوا يهدفون من وراء مؤلفاتهم ـ لا الى تعريف النقد في بلادهم ـ بل الى ايجاد نوع من النظرية يستخلصونه من خطوطها الصغيرة في القديم ويبينون تطورها حتى اكتمالها بين يدى المؤرخ . اي ان المؤرخ النقدي يكتب تاريخ النقد لكي يبين منطق النظرية التي يدافع عنها .. من اجل ذلك يكتبون تاريخ النقد في اوروبا ، كما هو من اجل ذلك ايضا يكتبون تاريخ الفلسفة هناك ، لا من أجل التعريف او الكشف فقط..

اذن ، هناك حلقة مفقودة ، وثغرة لا بد ان تملأ ، وقد عجز كل من ارخ للنقد العربي ان يستكمل هذه الحلقة ، وان يسد الثغرة ، فظلت هذه المشكلة الاساسية سببا لكافة المشاكل التي تقوم في الوسط الادبي بين النقاد والمبدعين ..

في ظل الفوضى النقدية ، واختلاط الحابل بالنابل ، قامت جماعتان نقديتان ، احداهما جماعة (النقاد العرب) وتضم الدكتور مندور ، والدكتور لويس عوض ، والدكتور محمد القصاص ، والدكتور محمد غنيمي هلال ، والدكتور عبد القادر القط ، والدكتور مصطفى ناصيف ، والاساتذة انور المعداوي ومحمود شعبان ، وعبد الرحمن فهمي وفؤاد دوارة وابراهيم عمارة ، والجماعة الاخرى هي (جماعة النقاد) وتضم الدكتور رشاد رشدي وآخرين ...

الجماعة الاولى تقول بأن كلف الدكتور رشاد رشدي بفنية العمل الادبي وحسب ، سوف تسقط نقده في الشكلية والتسطح ، وبناء عليه تقوم جماعة النقاد العرب بمسؤولية تصحيح الوضع ، لعدم تجاهل المضمون ايضا ، وقد استندوا في هذه الدعوة الى قول الدكتور رشاد رشدي في تعريف جماعته (جريدة المساء . الاثنين ١٩٦١/١/٢) : «الفكرة في تكوين جماعة النقاد هي محاولة حراسة الادب الجديد وتشجيعه.. وذلك بتقييم هذا الادب على اسس فنية . وهدفنا يرمي الى ارساء النقد على قواعد سليمة ، قواعد تنظر الى العمل الادبي كوحدة موضوعية لاينفصل فيها الشكل عن المضمون وتحاول ان ترى العمل الادبي كما هو على حقيقته .. فنحن محتاجون الى أعمال فنية تخدم المجتمع الجديد وتعبر عنه ويجب ان يدل كتابنا على الاصول الفنية التي تتحكم في اعمالهم الفنية،والملاحظ ان نقادنا يقتصرون في تقييم الاعمال الفنية على المضمون فقط . والمضمون هو الواقع ، والواقع نحس به جميعا ، ولكن الذي يحيل هذا الواقع الى عمل فني هي عملية الخلق الفني ، فاذا اهملنا الناحية الفنية في العمل الفني لحكمنا عليه بالاعدام .. »

والملاحظ ، عن حق ، أن الجماعتين تصدران عن موقف واحد ، لاتعارض فية ، الا الاهتمام بالشكل مرة ، والمضمون مرة اخرى ، هذا الاهتمام الذي هو بدون جدوى طالما ان الطرفين يعترفان بأن العمل الفني تكامل بين الشكل والمضمون ، والواقع ان هذه المعركة قديمة كالازل ، ناقشها العقاد في كتاباته الاولى ، وناقشها بعده محمود امين العالم ، وعبد العظيم انيس ، في بيانهما القوي ، وانتهى الرأي فيها الى اعتبار العمل الفني جسما حيا ومتفاعلا ، روحا وجسدا ، فنية ومضمونا ، فالعمل الفني كاللوحة الطبيعية المرسومة ، فيها من الواقع اجزاء ، وفيها من وهم الواقع اجزاء ، وفيها من (المثال) اجزاء ، ولذلك يظل العمل الفني تعبيرا عن الحياة ، وصقلا لها في الوقت نفسه ..

ان الفنان الواقعي لا ينقل الواقع حرفيا ، كما يقول الدكتور رشدي، وليس هناك فنان يجرؤ على عمل ذلك ، الا الفنان المبتديء ، فهل لقيام جماعته صلة بتقويم النشء ؟!.. ان الفنان يعد بعالم اكثر جمالا وقيمة، كل فنان يصنع ذلك ، حتى الفنان السيريالي الذي يملأ لوحته اصباغا.. وكذلك الروائي والقاص والدرامائي .. كلهم يفصحون عن هذا التوقع الملتهب ، وهذا النزوع الواعي الى عالم عظيم ..

كل النقاد المحدثين في اوروبا على تناقضهم الكامل واختلافهم في وجهات النظر ، والتذوق والادراك ـ يبدأون من هذه النقطة الواضحة: العمل الفني كيان متحد ومكتمل ، وكل ذرة فيه تحمل كهربين متعادلين هما الفنية والمضمون ، والنظريات النقدية الاوروبية قد انتهت منذ زمن الى قرار بازاء هذا الامر الواضح ، واختلاف النقاد هناك رجع الى مشكلات عصرية وهامة ، تدخل فيها اعتبارات الاخلاق في النص الادبي، ومشاكل الالتزام ، وحرية الكاتب ، والرموز ، والافكار التجريدية ، وهكذا ...

دلالة هذا الامر واضحة ، وهي ان بعض كبار النقاد عندنا معتكفون ويصدرون احيانا عن ردود الافعال ، والا فما هي القيمة الاساسية لنشوء جماعة النقاد العرب ، اذا لم تكن مناهضة جمعية النقاد ، ورفض آرائها .. ؟

وهناك ايضا ما هو اخطر من ذلك ، وهو اطلاق الكلام على عواهنه، بدون الاحساس ، حتى الاحساس البسيط بكرامة الفكر والقراء ، وهل ادل على ذلك من هذه الكلمة التي نشرها الدكتور رشاد رشدي ، وفاتت اهمية الاحتجاج عليها ، من الجماعة الاخرى ، بكل رجالها المثقفين ، وبكل ما نعرف عن بعضهم من ادراك وامتياز ومعرفة ، قال الدكتور رشاد رشدي في جريدة الجمهورية بعنوان (من اجل هذا قامت جمعية النقاد) : « الجمال والحقيقة شيء واحد .. » (!) ان الدكتور يتجاهل الفكر والتاريخ ، وابسط قواعد المناقشة ، ليضع فوق رؤوسنا زهرة وجبلا ، بدون ان يفسر، او ان يوضح الذي يقصد اليه ، فما هي هذه (الحقيقة) التي هي الجمال ؟.. اهي مسلك اخلاقي ؟.. أهي حجر الفلاسفة ، ام هي حقيقة خاصة بالدكتور ... ام ماذا ؟! .

وهاك جملة اخرى ، لا تقل عن هذه تعسفا وخطأ : « اذا جازت هذه الحراسة في اي وقت مضى فهي لا تجوز اطلاقا في هذه الفترة من تاريخ الامة العربية ... لان المجتمع الجديد الذي نعيش فيه له مضمون واحد لا يمكن ان يختلف فيه اثنان ، وهذا المضمون الذي ارسلته الثورة قد اصبح جزءا لا يتجزأ من كياننا القومي وبالتالي في كيان كل فرد منا ، وهو مضمون المجتمع الديمقراطي الاشتراكي التعاوني ، ولذلك فنحن نتفاعل مع هذا المضمون بالطبيعة وبحرية كاملة ... »

ماذا تعني هذه الفقرة ؟ واي الوان الكلام هو هذا اللون ؟

انها محاولة ـ حسب ما افهم ـ لتبرير الفنية التي يدعو اليها الدكتور رشدي (انا ابرر المحاولة وافهمها ، ولكنني لا افهم التبرير ولا ادركه) ، وهي محاولة فقيرة للغاية ، وانشائية للغاية ، اذ اننا نؤمن بجدوى الثورة وجدوى المجتمع الاشتراكي ، ولكن ، ما هو الرباط هنا ، بين الدعوة الى نقد جديد ، وبين (المجتمع الاشتراكي الديموقراطي التعاوني) الذي اقحم على الموضوع اقحاما ؟.

ولكنه اطلاق الكلام على عواهنه ، لغاية خافية ، او لغير ما غاية !..

ومن جهة اخرى تظل جماعة الدكتور مندور ، جماعة تثير التساؤل حقا ... ، فهل آمن كل اعضائها فعلا بجدوى النقد المبني على الواقعية الاشتراكية ، هكذا ، في جلسة واحدة ؟ هل آمن الدكتور عبد القادر

القط ، والاستاذ انور المعداوي، الذي نعرف لهما مواقف تخالف هذا الموقف الراهن ، هل آمنا بهذه النظرية فجأة وبدون مقدمات ؟!.

ما هي هذه النظرية النقدية التي تسمى باسم الواقعية الاشتراكية؟ أين اصولها ، واين منطقها ، واين تسلسلها التاريخي في وطننا ، وما هي طبيعة العلاقة في هذه النظرية بين المجتمع الذي نحيا فيه ، وبين مشكلة استعارة نظرية غربية ؟؟

كل ذلك في عالم الغيب ، وقد اقتنعت به جماعة النقاد العرب والتزمت به ، واذا كانت الجلسة الوحيدة التي جمعت بين النقاد العرب كفيلة (بتطوير) وجهات نظرهم ، فاين هو حق القارىء في المعرفة ، وحق النقاد الاخرين ، بل اين هو حقهم كنقاد مقتنعين في الكشف والابانة ؟.

ان الواقعية الاشتراكية دعوة لم تتضح لها خطوط ، حتى في وطنها الاصلي ، والمعروف ان عملية القسر الذي تفترضه هذه النظرية في المجالات التطبيقية اعنف بكثير مما يتصور اكثر حماتها تطرفا ، والامثلة على ذلك كثيرة ، ويكفي ان نشير الى المعركة التي قامت بين خاتشادوريان ، وبين (منظمي) هذه الدعوة ، مما دعا اتباعها الى التقليل من حدتها ، والموافقة على بعض صور الفن المرفوضة سابقا ، كالفن السريالي والرمزي والتجريدي ، بل لقد كانت معظم اللوحات التي عرضها الرسامون السوفييت في (نيويورك آرت جاليري) اكتوبر ١٩٦٠ ، من النوع الذي كانوا يسمونه بالفن الانهزامي والاسود ، وفن الرأسمالية المريضة وخلافه ...

لقد اضطرت الواقعية الاشتراكية ـ في وطنها ذاته ـ ان تعدل صفوفها ، وان تقوم عوجها ، لانها نظرية تحتمل التعسف ، وتحتمل الطغيان ، ولا يجب ان ننسى انها ازدهرت وحسب ، في الوقت الذي كان فيه (جوزيف ستالين) دكتاتورا عنيفا على الروسيا بفنها واحلامها ورجالها ...

ان اخلاص الجماعتين امر غير مشكوك فيه ، ولكن الاخلاص وحده لا يكفي . واذا كان الغرض هو النهضة بالنقد العربي الحديث ، فلا يجب ان نتوصل الى ذلك باتباع اساليب متاخرة ، فماذا يجدي الان ، تفرقة النقاد الى متعصبين للشكل ومتعصبين للموضوع ، ماذا يجدي ذلك في ارض خالية تماما من النقد العلمي الاصيل ؟!

لماذا لا يتكاتف النقاد ، ويتعاونون مع دار كبرى للنشر ، لاصدار سلسلة من الكتب النقدية الاساسية ، مع ترجمة كاملة للنقاد الكبار الذين اثروا في الفكر الاوروبي والامريكي (١) ؟ لماذا لا تصدر مجلة خاصة بالنقد الادبي.. لمتابعة الافكار الحديثة ، والتيارات النقدية الرئيسية في الغرب ؟.. لماذا لا تصدر كتب النقد العربية القديمة في طبعات رخيصة لتمكن الاستفادة منها على اوسع نطاق؟..

هناك مشروعات عديدة لانقاذ النقد الادبي من هذه الفوضى التي يتردى فيها ، والمشروعات محتاجة الى تمويل ، والى اشراف ، ومحتاجة الى امانة السلطة ، وعدم تطلبها للربح.

لقد اعربت الدولة عن تقديرها للمفكرين بهذه الجوائز التي منحتها لهم ، بل انها خلقت كيانا للكتاب والمثقفين بهذا التقدير ، واقتراحي هو التضامن مع صوت الناقد الدكتور علي الراعي ، بان تتحد الجبهتان لخير النقد العربي ، وخير الابداع ايضا ، طالما ان هناك اتفاقا جذريا بينهما ..

واقترح في النهاية ان تقوم لجنة من الجماعتين بدراسة التخطيط الذي وضعه الدكتوران لويس عوض وعلي الراعي ، والاتفاق مع وزارة الثقافة والارشاد ، لتمويل هذا المشروع الجزيل الفوائد ..

اذ انه من المستحيل ان نفكر في العثور على هذه الحلقة المفقودة في النقد الادبي عندنا ، بدون ان تكون هناك ارضية واسعة وعميقة ومتعددة الاتجاهات ، بتعدد الافكار التي مرت على اوروبا طيلة تاريخها. ان ترجمة التراث النقدي الاوروبي هي حجر الزاوية بالنسبة لنهضة هذا العلم او سقوطه ..

انه مشروع اعرف ضخامته ، ولكنني اعرف ان الامة العربية مرت في القديم بنفس الازمة ، واجتازتها ـ عندما ترجمت الفكر اليوناني ـ بروح عالية وثقة شديدة ، واعرف ايضا ان رجالا مثقفين معاصرين فكروا في هذا المشروع واقتنعوا باهميته ، وما زالوا يبدون استعدادهم للعمل على تحقيقه .

القاهرة — محيي الدين محمد

(١) اطلعني الدكتور محمد يوسف نجم على تخطيط في حوزة الدكتورين لويس عوض ، وعلي الراعي يصلح البدء في تنفيذه كمرحلة اولى لترجمة الفكر النقدي في اوروبا . اين هذا المخطط ؟ وما هو مصيره؟

●

الواقع الادبي في الاقليم الشمالي

لمراسل الاداب : محيي الدين صبحي

*

تنبئنا نظرة عامة الى تاريخ الادب في الاقليم الشمالي ، ابتداء من سنة ١٩٣٠ ، بان حظ الاقليم سيء فيما يتعلق بامور الادب والادباء . اذ مايكاد ينضج جيل من الكتاب ويبدأ باعطاء ثماره ، حتى تعدو عليه الايام فتلتهمه ، وسرعان مايجف قلمه ويغيب . ففي حوالي العقد الثالث من هذا القرن برزت اسماء كل من الدكاترة والاساتذة : جميل صليبا ، صلاح محايري ، شكري فيصل ، عمر ابو ريشة ، فؤاد الشايب ، شكيب الجابري .. وغيرهم .

وما بين العقد الرابع والخامس ظهر خليل هنداوي ، وداد سكاكيني، شاكر مصطفى ، عبد السلام العجيلي ، نزار قباني ، الفة الادلبي .. وبعد سنة ١٩٥٠ ظهر ادباء الرابطة وبعض الادباء الحزبيين .. لم يبق لهذه الاسماء ولغيرها ، سوى اصداء خافتة تظهر بين حين واخر في بعض مناسبات التكريم ثم تختفي .. وهذه خسارة فادحة للفكر والادب .. وهي خسارة افدح في حساب التاريخ الادبي . اذ ان الوميض الذي اضاء في كل جيل لم يكن يكفي لانشاء تقاليد ادبية . وبذلك شب كل جيل مقطوعا عما سواه في النظر والمعالجة .

اما الان فان سوريا تعيش على جيل من الادباء الجدد يتكون من ادباء الصالونات ، ومن صحافيين يتدخلون في شؤون الادب ، ومن طلائع ادباء يرتبطون بتيارات الثقافة العالمية ويحاولون ان يكونوا شخصيات ادبية . واذا اردنا التفصيل وبحث المجال الحيوي لكل زمرة من الادباء وجدنا ان ادباء الصالونات يلتقون في سهرات المجتمع البورجوازي ، ويعرضون نتاجهم ضمن اربعة جدران ، وفي جو من الاستحسان الصفيق، انهم ادباء بلا قضية . وانتاجهم مجرد كتابات زخرفية باهتة ، بعيدة عن حبر المطابع ، فادبهم شفهي ، وهم لايبحثون عن قراء بقدر مايبحثون عن مستمعات .

اما فئة الادباء الذين ينظرون الى الكتابة بعين الجد ، فانهم يصدرون

في انتاجهم عن ثقافة وجهد وصنعة وقيم فنية ودعوة الى اخلاق جديدة. انهم يحتلون صف الصدام الاول في معركة الجيل من اجل حريـــة اجتماعية ، من اجل حرية الفرد من قيود مجتمعة ، ففي كتاباتهم تحلـل من التابو المفروض على الجنس ، وفي كتاباتهم تطهر من اقذار المفهومات الرجعية عن الانسان والدنيا الفانية . انهم يكونون جيلا يحب الحياة ؟ جيل طليعة يبدع ادبا جديدا في سبيل انسان جديد . ان النكسات التي منيت بها كل الانتفاضات الثورية في العالم العربي تعود الى سوء صنع الانسان العربي . ان بناءه الداخلي مخرب متهافت متناقض ، يحـوي في صميمه بذور الخيبة . فما قيمة الحرية السياسية لانسان مستعبد من داخله ؟ ماقيمة الحرية الاجتماعية اذا كان الفرد لايستطيع ان يتحرر من عبودية الكبت ومن عبودية المحافظة على كل سيئات العصور القديمـة والجديدة . ان معركة الادباء الطليعيين هي معركة تربية جديدة ،ومجالهم هو في الكفاح ضد المجتمع وضد الانسان الحالي .

بقيت فئة الصحافيين المتادبين ؟ وهؤلاء فئة خطرة بمالها من اتصال يومي بالقراء على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم . ومن المؤسف ان الصحافة عندنا ليست بمستوى يليق بالاديب ان ينشر فيه رسالته .وللصحافيين خطر اكبر بسبب علاقتهم بالادباء الناشئين الذين يبحثون عن منفذ يصلون منه الى القراء ، فلا يجدون الا الصحف اليومية لينشروا فيها انتاجهم، وبالطبع يظهر الصحافي امام المبتديء بمظهر الاستاذ الكبير والذواقة الرصين . واذا عرفنا ان في الاقليم الشمالي كله لاتوجد الا مجلـــة شهرية واحدة هي مجلة « الثقافة » ، واذا تذكرنا بان كل جريدة تصدر صفحة ادبية اسبوعية . استطعنا ان نقدر مدى التاثير الذي يمارسه هؤلاء الصحافيون المتادبون على ذوق القارىء وعلى مستقبل الاديـــب الناشيء . ومن المؤسف ان اكثرهم ليسوا بمستوى مهمتهم .

ولكي اوضح الفرق بين الفئة الجدية من الادباء الطالعين ، وبين البقية ينبغي ان نذكر باستمرار ان الادب نوع من الانطواء على النفس . مـن الحياة ضمن منولوج داخلي يصهر الاحداث والتجارب والافكار في كـل ذاتي له خصائص الشخصية الادبية ، وله مميزات الاديب كفرد .. كانسان يعيش في هذا العصر من حياة العالم ، ويستكشف محتوياته ويعطيهـا معناها الذي يراه ويستنتجه . ومن هنا كانت ضرورة وصول الاديـــب الى الحد الاقصى من الحالات . ان الاديب الذي يصدر في كتاباته عـن المعاناة هو الذي يقذف بنفسه الى الحد الاقصى في زحمة الحيـاة والمجتمع والحوادث .. ينظر الى كل ذلك من زاويته الشخصية ثم تكون لديه القدرة على التامل واعطاء معنى وتبني موقف . ان فريق الادبـاء الجديين يحاولون ان يستنتجوا معنى ، ويحاولوا ان يتبنوا موقفا ؟ امـا اخواننا الصحافيون فانهم يكتبون .. يكتبون دون ابتغاء التعبير عـن ازمة او عن عرض لحل ازمة . وربما كانوا يكتبون طلبا للشهرة ، لعرض الذات ،لتحسين وضعهم الاجتماعي ، لرفع دخلهم .. لكن هذه العوامل لاتدخل كثيرا في حساب المستوى الادبي .. ومن المؤسف ان يرفـع هؤلاء الناس اصواتهم باسم « الادباء الشباب » ! انهم يكتبون تحـت هذا الشعار ، ويتجولون في الاوساط الاجتماعية يفرضون قصصهم في محاضرات تلقى على الجمهور ! ومن الامور التي تثير الاسى انهم لايقبلون اي نقد . انهم يتطلبون من الادباء الباقين ان يتضامنوا معهم مادام الجميع « شبانا » بعون الله ! وقد نشا اصطلاح « الادباء الشبا ب» تحت ضغط الاقطاعية الفكرية التي مارسها ادباء الصالونات ودكاترة الادب .. فقد امتص هؤلاء بحكم وظائفهم الكبيرة ، كل مجالات المنافع الادبية ، وانكروا بنفس الوقت امكانيات جيل كامل بكل مافيه من مواهب وجهود ، وكـان رد فعل هذا الجيل انكارا مقابلا لامكانيات الجيل الماضي وطرحا لشعار الادباء الشباب . ولكن ما ان بدأ هذا الجيل يفرض نفسه ويحتل بعض المراكز حتى انقسم بفعل تفاوت المواهب والثقافة والغايات التي يسعى اليها . فالذين ينظرون الى الادب على انه وسيلة للفائدة المادية طلبوا الشهرة والنفوذ الادبي لان الشهرة تجر المال ، اما الذين ينظرون الـى الادب على انه غاية تهون في سبيلها كل المنافع قنعوا بالاخلاص ـ او ببعض الاخلاص ـ للكلمة التي يكتبونها .. وكاد الادب يضيع تحت سنابـــك الفائدة والاخلاص .

والقارىء لصحف دمشق يقع تحت سيل من الشتائم والاتهامات يتبادلها الجميع دون استثناء متناسين ان الادب الشاب هو الادب الذي يجعل من الحياة دينا وعبادة ، يدعو الى مصارعة الحياة ويعرض مأساويتها ، ويدعو في الوقت نفسه الى الوقوف في وجه اللامعنى الذي تحمله الحياة، ويجعل من نضال الانسان معناها . وأدب الشباب هو الادب الذي يرفض التقاليد القديمة ويتمرد على المواضعات الاجتماعية ويهدم صروح القرون الخالية . وادب الشباب هو الادب الذي يثور في سبيل تطور نحو الافضل ويدعو الى شروط للحياة أكثر انسانية ، ويساهم في بناء قيم اكثـر تلاؤما مع روح العصر وتراثه . والاديب الشاب هو الذي يصدر عن كل ذلك .. يرتبط بالتراث ويثور عليه . يتملأ منه ثم يقف وحده متحديا تراثه ومجتمعه ، مكافحا مناضلا في سبيل محو قيم وفرض قيـــم . والاديب الشاب يلد وفي بدء كتاباته ثورة ، ثم ينمو وتتوضح معالـــم هذه الثورة ، وتتركز تلك القيم الجديدة حتى يستوي في ذهنه مفهوم جديد لانسان جديد .

اذا نظرنا الى مايكتب ، على ضوء هذه المفهومات ، اعتقد اننا سوف نقع في ازمة . وسوف نظل نسأل : أين الادباء الشباب ؟ انهم قلـة . والمهاترات التي تجري لن تفعل شيئا اكثر من ان تثير القرف في نفـس القارىء .. القرف من الادب والادباء . وما دام هذا هو الواقع الادبي فليس لنا ان نامل كثيرا من الاقلام التي تطرح نفسها في السوق .وليس لنا الا انتظار فلتات فردية من بعض الاقلام . أما الحماسة لجيل كامل، فانها تؤدي بنا الى الخيبة ؟

ذلك ان هذا الجيل متآكل ولا يبشر بخير كثير ..

السّـــودان

محاضرة عن الادب السوداني

من مراسل « الاداب » حامد محمود وافي

*

دعت مدرسة المؤتمر الثانوية الاستاذ الكبير « حسن نجيله » الـــى القاء محاضرة عن الادب السوداني منذ ربع قرن .

والاستاذ نجيله من طلائع الخريجين ، ومن جيل المثقفين السودانيين، الذين اسهموا في صنع تاريخ بلادنا ، وقامت على اكتافهم نهضتنـــا الادبية .. ولم يترك الاستاذ نجيله تلك الفترة التاريخية تمر دون ان يكون لها اوفر نصيب في المكتبة السودانية ، فاصدر كتابه « ملامح مـن المجتمع السوداني » الذي عني فيه بتسجيل الحوادث التي كانت تؤثر في نمو وتوجيه المجتمع السوداني .. واستطاع ان يعطينـــا ـ مـن خلال هذه الحوادث ـ صورة واضحة عن المجتمع في تلك الفترة ، بجده ولهوه ، غثه وسمينه ..

وقد راينا ان نورد هنا اهم ماجاء في هذه المحاضرة القيمة :

« عندما دعيت لالقاء هذه الكلمة طافت بذهني مواضيع كثيرة ، وحرت ايها اختار للحديث . ثم تذكرت ان الكلمة في الواقع موجه لابنائـــي الطلبة وان علي ان اختار ماينا سبهم ، فلم اجد خيرا من ان ادسل لنفسي على سجيتها فاتحدث اليهم في غير تعمل عن ذكريات عن تلمذتنـــا ،

النشاط الثقافي في الوطن العربي

والعقبات التي اجتازها جيلنا والمهام التي اضطلع بها ، على قلة الزاد ووعورة الطريق . وان كنت في كتابي قد صورت ملامح من جيل العشرينيات وهو الجيل الذي تتلمذنا عليه ، وأخذنا بعض أساليبه ، فان اكثر كلمة اليوم تشخص ملامح من جيل الثلاثينيات في غير تفصيل او تعمل كما ذكرت .

ذكريات كلية غردون

ولا بد ان تكون نقطة الابتداء كلية غردون ذات الذكريات الحبيبة الى نفوس ابناء جيلنا خاصة وكلية غردون لم تكن تعني اكثر من مدرسة ثانوية رغم ضخامة الاسم ، ويضم بجانب القسم الثانوي مدرسة المعلمين والقضاء الشرعي ، وقسما صناعيا ابتدائيا ، ومدرسة العرفاء التي تخرج معلمي المدارس الاولية ..

كانت حياة الطلبة فيها جافة قاسية ، كنا بداخلياتها عام ١٩٢٨ ونحن نتطلع للمعرفة والثقافة ، واذا بنا نجد الكلية تحارب المعرفة والثقافة، واول مظاهر هذه المحاربة ان كان محرما على الطلبة ان يقرأوا المجلات والصحف المصرية ، ولم تكن هناك صحف سودانية غير واحدة هي « حضارة السودان » فاذا ضبط طالب وفي حوزته مجلة ثقافية مصرية او سياسية عوقب عقابا شديدا .. ومن مظاهر محاربة المعرفة ـ الا في الحدود التي رسمها المستعمرون ـ ان كانت في الكلية مكتبة كبيرة تضم العديد من الكتب العربية والانجليزية ولكنها كانت مغلقة امام الطلبة ، يجتمعون فيها ولا ينتفعون منها !..

واذكر ان عاد الاستاذ عبيد عبد النور من البعثة التي كان فيها مع بعض زملائه المدرسين في بيروت ـ عاد ليشغل وظيفة مدرس في الكلية وفي ذهنه افكار كثيرة جيدة كان يود ادخالها في الكلية .. وقوى من صلاته بالطلبة فتوسلوا اليه ان يعمل على فتح مكتبة لهم . ونجح بعد جهد لكي يخصص امسية يوم واحد في الاسبوع ، وكان مساء الاربعاء. لكي ينتفع طلبة الفصول النهائية من اقسام الكلية بالمكتبة . اي طلبة السنة الرابعة للكلية والخامسة قضاة والثالثة للعرفاء على ان يقصى بقية الطلبة عنها ، وبهذه المناسبة فقد ادخل الاستاذ عبيد عبد النور لاول مرة لعبة كرة السلة « باسكيت بول » جاء بها من جامعة بيروت عام ١٩٢٨ ولم تكن معروفة لدينا من قبل ..

وكان لابد لنا ان نتحرر من هذا الحصار وهذا الضغط وان نبحث عن مجال اوسع وارحب للتعليم .. فهرب قلة من الطلبة الى مصر لينالوا المزيد من العلم والثقافة .. وكان السفر لمصر جريمة منكرة ، وقد اتخذ الطلبة وسائل عديدة للتنكر حتى لايقبض عليهم في الطريق وينالهم تنكيل السلطات الانجليزية .. كان بعضهم يختفي مع رعاة الماشية المصدرة لمصر ، فيظهر كانه احدهم الى غير ذلك من الوسائل التي يعرفها ويذكرها الكثير من المدرسين ويستوعب تفاصيلها ..

كان هذا الحرمان القاسي من الاستزاده من المعرفة والعلم دافعا قويا لذلك الجيل لكي يعمل لسد هذا النقص ، فكان ان ظهرت في مجتمع المثقفين جمعيات القراءة في المنازل وكانت جمعيات القراءة هذه تضم المجموعات المتجانسة من ابناء الحي ، فيجتمعون كل في مواقيت محدودة في دار احدهم ويدور البحث والنقاش الذي خصص للبحث بعد ان يكونوا قد وكلوا لاحدهم دراسته وعرضه .. وكانوا يستعرضون اكثر من كتاب في الاجتماع الواحد .

وقد بدأت هذه الجمعيات في امدرمان اولا ثم انتقلت منها الى المدن الاخرى حيثما كانت توجد مجموعة من الخريجين ..

وقد اشتهرت في ام درمان جمعيتان احداهما جمعية يحيى «الهاشماب» ومن اعضائها البارزين انذاك السادة محمد احمد محجوب « وزير الخارجية السابق ـ محام » والدكتور عبد الحليم محمد والاخوان محمد وعبد الله عشرى الصديق ، وقد كانوا من المع شباب ذلك الجيل ثقافة وحيوية ووطنية . والمرحوم عرفات محمد عبد الله احد قادة ثورة عام ١٩٢٤ وكان ممثل جمعية اللواء الابيض في مصر بعد ان هرب اليها خوفا من بطش الانجليز به كما فعلوا باخوانه اعضاء هذه الجمعية .. ثم عاد بعد لاى في الثلاثينيات موظفا في شركة ثم اسس فيما بعد مجلة الفجر ..

والجمعية الاخرى كانت في « ابي روف » ومن بين اعضائها السادة عبد الله ميرغني واسماعيل العتباني « رئيس تحرير جريدة الراي العام » ودكتور ابو شمه والمرحوم حسن عثمان النور وابراهيم يوسف سليمان ، والهادي ابو بكر وخضر حمد واخرون ..

وفي هذا الطور برز اتجاه اخر في صفوف المتعلمين وهو تنمية الصداقة الفكرية بينهم ، فكانوا يحرصون على التعارف وتبادل الرسائل الادبية الثقافية . ولم يكن غريبا ان يتسلم احدهم رسالة من زميل لايعرفه الا بالاسم ، وعن بعد ينشد صداقته والتعرف اليه عن طريق الكتابة .

وعندما انتشرت فكرة الاندية ، انتقل هذا النشاط الثقافي الذي كان مقره المنازل باسم جمعيات القراءة ، الى دور الاندية باسم الجمعيات الادبية . وكان من النادر جدا ان يوجد نادٍ مهما كان عدد المتعلمين فيه ولا يضم جمعية ادبية تزاول نشاطها في القراءة والدرس والقاء المحاضرات الادبية ، واقامة المناظرات .. كل هذا في حدود المواضيع الثقافية ، اذ كان الكلام في السياسة محرما التصدي لمناقشة الافكار الوطنية ممنوعا ـ سنة المستعمرين حيثما كانوا ..

كان المتعلمون قلة ، ولهذا كانوا يحسون بمدى المسئولية الوطنية الملقاة على عواتقهم ، ويدركون معنى الواجب الذي يجب ان يؤدوه في تلك الفترة من نشر الوعي بين سائر طبقات الشعب .

ويجدر بي هنا ان اقف عند احدى هذه الجمعيات الادبية التي كانت من اوضح مظاهر الحياة الاجتماعية في الثلاثينيات ، وما كسبته البلاد من هذا النشاط ..

في عام ١٩٣٤ كنت اعمل في مدرسة مدني الدولية وارتاد مثل غيري من الموظفين نادي الخريجين بمدني ، وسرعان ماتقدم بعض الموظفين من الخريجين بتكوين جمعية ادبية ..

ووجد الاقتراح قبولا وقامت الجمعية وكان اول سكرتير لها الاستاذ اسماعيل العتباني صاحب جريدة الراي العام ، وكان يعمل انذاك محاسبا في مصلحة الزراعة بمدني .. واخذنا نجتمع في غرفة المكتبة بعد ان نقفل علينا ثم نناقش مانريد نقاشه من كتب او مواضيع ادبية ثقافية ، وبجانب هذا كنا نتدرب على الخطابة .. فقد كان يحلو لبعضنا ان يتخيل انه يخطب في الالوف من المواطنين الثائرين ، ونحاول ان نزيد حماسهم اشتعالا .. اذكر هذا وقد شاءت المقادير ان يتحقق الخيال .. فقد شهدت وسمعت اعضاء تلك الجمعية يخطبون في جماهير الشعب حقيقة لا خيالا ويقودونهم لمعركة الحرية ضد الاستعمار .. فقد كان من ذلك النفر الكريم من اعضاء الجمعية وقواد الثوره الوطنية اخيرا احمد خير « وزير الخارجية » واحمد مختار « سفيرنا بالجمهورية العربية المتحدة » وحماد توفيق « وزير سابق ومدير البنك الزراعي حاليا ».

وفي عام ١٩٣٦ وقعت الاتفاقية المصرية الانجليزية المعروفة بعد ان انقطعت كل صلات مصر بالسودان عقب حوادث ١٩٢٤ وقد جاء في اول نصوص هذه الاتفاقية ان تعطى الاولوية في الوظائف للسودانيين فاذا لم يوجد بينهم من يصلح للوظيفة اختير لها من احدى الدولتين ..

واجتمع اعضاء الجمعية الادبية بمدني ليتدارسوا موقف المتعلمين بعد هذه المعاهدة ، وكيف يمكنهم ان يستفيدوا من هذا النص فيسيطروا على المناصب ذات الاهمية في الدولة ، وهم مبعدون عنها . واكبر منصب يشغله سوداني في الادارة هو منصب المامور ..

النشاط الثقافي في الوطن العربي

واقترحت الجمعية على الاستاذ احمد خير ان يلقي بحثا عن واجب الخريجين بعد المعاهدة . ومن الخرطوم كتب للجمعية الاستاذ احمد يوسف هاشم وكان يرأس تحرير جريدة النيل – وهي اول جريدة يومية سودانية–بانه قادم لزيارة الجزيرة (مدني) ويود الاجتماع باعضاء الجمعية .. واقيم له حفل بالنادي ، وتقرر ان يلقي احمد خير بحثه في ذلك الحفل .. ونادى في ذلك البحث بوجوب اجتماع الخريجين في منظمة واحدة تجمع شملهم ، وتوحد كلمتهم ليواجهوا مسئولياتهم الجديدة بعد المعاهدة ونادى بقيام مؤتمر للخريجين ..

وعاد المرحوم احمد يوسف هاشم الى الخرطوم لينشر كلمة احمد خير على صفحات النيل ومجلة الفجر التي كان يصدرها المرحوم عرفات وتولى امرها بعد وفاته احمد يوسف هاشم ومحمد احمد المحجوب فيوسف التني .

ولم تلق الفكرة قبولا في بدايتها من كل طبقات خريجي العاصمة المثلثة « الخرطوم – امدرمان – الخرطوم بحري » وعلى وجه خاص عارضتها لجنة نادي الخريجين بامدرمان . وقد خاف خريجو النادي ان يفلت قيام المؤتمر القيادة من ايديهم ، وقام حفنة من شباب العاصمة، ومن ورائهم اعضاء الجمعية الادبية بمدني بالحملة لنجاح الفكرة وابرازها الى حيز الوجود ..

واستطاع المؤتمر ان يقوم وان يعقد اجتماعه الاول متخيرا له عيد الاضحى ليستمد منه وحي الفداء والتضحية في سبيل الوطن .. وبقيام نادي الخريجين انتقل النشاط السياسي السري الى شيء من العلانية والوضوح واخذت الافكار السياسية تتبلور شيئا فشيئا عن طريق هذه المنظمة ..

وقد كان المهندس الشاعر على نور صادقا كل الصدق وهو يحيي المؤتمر في اول اجتماعه بقصيدة مطلعها :

الله اكبر هذا الروح اعرفه
اذا تذكرت ايامي ويعرفني
كنا ننميه سرا في جوانحنا
حتى استحال الى الاجهار والعلن

وهنا يدر سؤال لا بد من الاجابة عليه وهو :

ما هو موقف الانجليز من المؤتمر ، وكيف ارتضوا له ان يبرز رغم حرصهم البالغ على واد الحركات الوطنية في مهدها ؟؟

قبيل معاهدة عام ١٩٣٦ ونحن في جمعيتنا الادبية بمدني قبل قيام المؤتمر فوجئنا برسالة خاصة من مدير مديرية النيل الازرق يقول فيها ان المستر سايمز Mr. Sayms حاكم السودان العام يرغب في زيارة الجمعية وقضاء امسية ليستمع فيها للاعضاء ، فما كان في وسع الجمعية ان ترفض زيارة الحاكم العام . وجاء سايمز في غير جلبة ، وبمظهر عادي وجلس مع اعضاء الجمعية داخل غرفة المكتبة واستمع اليهم يتحدثون ، وقد اعدوا كلمات قصيدة باللغة الانجليزية اشاروا في بعضها الى مستقبل السودانيين في ادارة شؤون بلادهم . ولم يقل الرجل شيئا واضحا ، ولكنه ابدى سروره من هذا النشاط الثقافي وتمنى ايضا ان يتماسك المتعلمون ويرتبطوا .

وقام المؤتمر بعد ذلك وسايمز مازال حاكما عاما ، وكنت في شندي ونحن نستعد – قلة من الموظفين – لحضور اول اجتماع للمؤتمر وكان بعض كبار الموظفين وجلين من هذه الحركة يخشون ان تنطرف في وطنيتها .. وهم ما زالوا يذكرون ضحايا عام ١٩٢٤ .

قبيل سفرنا من شندي لحضور المؤتمر حضر مدير المديرية المستر برفكس وجلس الينا في النادي وتساءل عن الذين سيذهبون لحضور المؤتمر ووجدنا قلة يسيرة ، واذا بالرجل يفاجيء الاخرين الذين اظهروا عدم الرضا بان المؤتمر عمل مجيد ، وان واجبهم ان يؤيدوه ويذهبوا اليه .. وزاد عددنا في الحال . وكان الانجليز يهدفون من تشجيعهم وتأييدهم للمؤتمر خوفهم من ان ينصهر السودانيون وراء شعارات الحركة الوطنية المصرية ..

ولكن المؤتمر وان تعثر بعض الشيء عند بدايته ، فانه اتخذ فيما بعد طريقه الوطني الثوري ، فما هي الوسائل التي ابتكرها المؤتمرون ليربطوا الشعب بهذه المؤسسة الوطنية ؟

مرة اخرى من خلال اجتماعات الجمعية الادبية بمدني خرج صوت ينادي اولا بالمهرجان الادبي ثم بيوم التعليم، ثم بيوم السودان الرياضي.. واقيم اول مهرجان ادبي في مدني على شرف الجمعية الادبية .. ودعوا له الشعراء والادباء والباحثين .

وكان برنامج المهرجان يفيض بالبحوث الجادة والشعر الوطني الملتهب بجانب اللوحات الفنية وبعض التماثيل .. واذكر قصة طريفة حدثت لي:

كنت قد اعددت بحثا يمثل جانبا من الفلسفة الاسلامية واخذت المعتزلة لاعجابي بتقديرهم للعقل ، وقد كنا لا ندري طبيعة المستمعين لتلك البحوث .. والمستمعون اكثرهم من عامة الشعب ، فما كدت اسير فيه لبضع دقائق حتى تسلل المجتمعون من السرادق ، حتى لم يبق فيه غير قلة مؤمنة صابرة استندت امرها لله واستمعت لي حتى النهاية. ولما انتهيت .. اسرعت الى صديقي عتباني وقلت له سأحمل لقب اثقل متحدث ، فضحك وقال لي صبرا .. وجاء دور البحوث الاقتصادية واعتلى المنصة السيد حماد توفيق ، وكان معنيا بالدراسات الاقتصادية فما زال بالناس من رقم الى رقم ومن احصائية الى اخرى حتى اجلاهم من السرادق وانا اصفق له مستزيدا .

اما يوم التعليم فقد كان مفخرة من مفاخر المؤتمر ولا تسألوا عن التجارب العظيم الذي فاق حد التصور ، ولن تنمحي من قلبي اطلاقا .

تلك الصور .. اذكر عندما قرر المؤتمر القيام باول طواف على الشعب لجمع التبرعات ليوم التعليم ، وقد قسمنا سوق امدرمان الى مناطق ، وخصصت لكل جماعة من اعضاء المؤتمر منطقة .. وفي تلك الازقة شبه المهجورة وكان يتقدمنا ثلاثة من اخواننا ، واسير انا والمرحوم الاستاذ عفان وفي ايدينا صندوق التبرعات .. اذ رأيت الذين سبقوني ينظرون الى داخل دكان اشبه بالفجوة ثم يسرعون بالخطى دون ان يلجوه .. واقتربت انا وعفان فراينا شيخا هرما ، وضع على عينيه نظارة سميكة ينظر الينا من خلالها متسائلا .. كان يجلس على « برش » قديم وامامه سندانه ويقوم بصنع خاتم صفير .. وكل ماحوله ينطق بالفقر ..وقدرنا ان زملاءنا تجاوزوه ولم نرد نحن ان نتجاوزه ، فدخلنا عليه وسلمنا ، فهش في وجوهنا وحدثناه عن مهمتنا ، وقلنا له اننا نقبل قرشا واحدا للتبرع .. وما كاد يستوعب حديثنا حتى اسرع الى « البرش » ورفع جانبا منه ليجد حفرة صغيرة كان يضع فيها ما يحصل عليه من رزق ، وفي سرعة اخذه كله وسلمه الينا وهو يعتذر ، وقد تاثر عفان حتى سالت دموعه .. »

ويجيء الاستاذ نجيله الى نهاية المحاضرة الوطنية التي حكى فيها فترة تاريخية للادب السوداني والدور الوطني الذي لعبه المثقفون في تحرير البلاد .. وانتهت المحاضرة بهذه العبارة التي توجه بها الاديب الى ابنائه الطلبة :

« ... وها انا وغيري نحدثكم عن وطنكم وبلادكم ، وعن تجارب من سبقوكم للعمل ، ثم نذهب كلنا امنين فلا مستعمر يطردنا ، او يوصد باب المعرفة في وجوهنا .. واذا كان الجيل الذي سبقكم استطاع ان يصل بنا الى الاستقلال الكامل في تلك الاجواء الرهيبة والحرمان القاسي فما احراكم ان تبنوا سودانا جديدا قويا مرهوب الجانب .. فهذا هو دوركم الذي ترجوه منكم البلاد .. دور البناء والتعمير سلاحكم في هذا علم واسع غزير ، وخلق قويم وفير » ..